Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكأن البحترى وضع أمام النقاد والشعراء حقيقة لعبت - ولا تزال تلعب - دورًا كبيرًا فى تاريخ شعرنا، وهى أنه ليس العيب فى القيثارة الموروثة ولكن فيمن يوقّعون عليها، آمن بذلك البحترى وغيره من شعراء العصر العباسى العظام، فلم يحاولوا تغييرها ولا إدخال أوتار جديدة عليها، واستطاع كل منهم أن يستخرج لنفسه منها موسيقاه التى تميزه كما تميز مهارته فى استخدام العناصر الصوتية: عناصر الكلمات والحروف والحركات والتقطيعات واستغلال نسبها وأقيستها النغمية، وفى أثناء ذلك ظهرت المسمَّطات ولكنهم لم يُقْبلوا عليها. وظهرت فى أقصى الغرب فى الأندلس الموشحات، وفى رأينا أنها تولّدت من المسمطات التى تتألف من أدوار، وينتهى كل دور بشطر يتحد فى رويِّه مع مثيله فى جميع الأدوار، فى حين يختلف الرَّوِىُّ فى شطور كل دور تسبقه، وكأن الموشحات إنما عدَّدت الشطر الذى تُخْتَمُ به أدوار المسمطات، وسمّت ذلك أقفالاً بينما سمّت ما قبله غصونًا. ويفترق إيقاع الموشحات عن الإيقاع الموسيقى الموروث فى تعدد قوافيه، ولكن فكرة الشطور لاتزال قائمة فيه، ولا يزال يلتحم بالإيقاع القديم فى انتخاب الألفاظ وتناسق الحروف والحركات والتقطيعات، مما يحدث فيها تجاذبًا وتشابكًا واستواءً موسيقيًّا دون أى عوج أو انحراف، بل مع الرشاقة والعذوبة. وبذلك يتصل إيقاع الموشحات بإيقاعها الشعرى الموروث، ويتغذى منه غذاءً حيًّا خِصْبًا مثمرًا، ومن هنا أمكن بقاؤها وخلودها وشاعت وانتشرت فى البلدان العربية، لأنها وجدت فيها نفس الرحيق الشعرى الموسيقى الذى يمتاز به إيقاعها الشعرى الموسيقى القديم، إذ تولّدت منه كما يتولد الجدول من النهر الفياض والغصن من الشجرة الكبيرة.

٣

وقد يكون من الطريف أن ندرس الإيقاع الشعرى عند علم من أعلام الشعر الأندلسى هو ابن زيدون القرشى المخزومى الذى اشتهر بحبه لولّادة بنت الخليفة المستكفى، وكانت أديبة شاعرة وجميلة خلابة، واتخذت لنفسها فى